حقائق أرباب السلوك



الكاتب

الإمام ابن القيم الجوزية (رحمه اللّه)

فصول

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال

(١٣)

مطبوعات المجمع

عطاءات العلم

طريق الهجرتين وباب السعادتين

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

حققه

محمد أجمل الإصلاحي

خرج أحاديثه

زائد بن أحمد النشيري

إشراف

بكر بن عبد الله أبو زيد

المجلد الأول

دار عطاءات العلم

دار ابن حزم

فصل

قال: «فالإرادة[(١)] والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق من منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلَّت فيها أحوال المشاهدين[(٢)] حتَّى يفنى ما لم يكن، ويبقى ما لم يزل»[(٣)].

قلت: الحقائق التي يشار[(٤)] إليها على لسان أهل السلوك ثلاثة[(٥)]:

حقيقة إيمانية نبوية: وهي حقيقة العبودية التي هي كمال الحبّ وكمال الذلّ. وسير أهل الاستقامة إنَّما هو إلى هذه الحقيقة، ومنازل السير التي ينزلون فيها هي منازل الإيمان الموصلة إليها. والمنحرفون لا يرضون بهذه الحقيقة، ولا يقفون معها، ويرونها منزلةً من منازل العامَّة!

الحقيقة الثانية: حقيقة كونية قدرية. يشاهدون فيها انفرادَ[(٦)] الربّ سبحانه بالتكوين والإيجاد وحده، وأنَّ العالم كالمَوَات[(٧)] يقلِّبه ويصرِّفه كيف شاء[(٨)]. وهم يعظِّمون هذا المشهد ويرون الفناءَ فيه غايةً ما بعدها

---

(١) «ب، ط»: «والإرادة».
(٢) محاسن المجالس (٩٦).
(٣) قراءة «ف» وغيرها: «الشاهدين». وفي المجالس: «السائرين».
(٤) «ك، ط»: «أشار».
(٥) كذا في الأصل والنسخ الأخرى. وفي «ط»: «ثلاث».
(٦) «ف»: «أنوار»، تحريف.
(٧) في «ك» أقحمت كلمة «كانوا» قبل «كالموات». وفي«ط»: «كالميت».
(٨) «ط»: «يشاء».

شيء. وهذا من أغلاطهم في المعرفة والسلوك، فإنَّ هذا المشهد لا يدخل صاحبه في الإيمان فضلاً عن أن يكون أفضلَ مشاهد أولياء الله المقرَّبين، فإنَّ عُبّاد الأصنام شهدوا هذا المشهد، ولم ينفعهم وحده.

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾(1) [المؤمنون/ ٨٤ ـ ٨٩].

وقال تعالى(2): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف/ ٨٧]. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾[الزخرف/ ٢٠]. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾(3)[الأنعام/ ١٤٨].

وهذا كثير من القرآن.

فالفناءُ في هذا المشهد لا يُدخِل العبدَ في دائرة الإسلام، فكيف يُجعَل(4) هو الحقيقةَ التي ينتهي إليها سيرُ السالكين، وتُجعَل حقيقةُ الإيمان ودعوةُ الرسل منزلاً(5) من منازل العامّة! وهل هذا إلا غاية الانحراف والبعد(6) عن الصراط المستقيم، وقلب للحقائق؟ وكم قد

---

(١) وقع في الأصل و«ف،ب»: «الله» في الموضعين الأخيرين من الآية، سهو.
(٢) «وقال تعالى» ساقط من«ط».
(٣) وقع في الأصل والنسخ الأخرى سهوًا: «وقال الذين أشركوا»!
(٤) «ط»: «يجعله».
(٥) «ف»: «منزل». وهي مشبوكة في الأصل بالكلمة التالية. وفي «ط»: «منزلة».
(٦) «ب»: «البعد والانحراف».

هلك في هذه الحقيقة من أمم لا يُحصيهم إلا الله! وكم عطّل[1] الواقفون معها من الشرائع، وخرَّبوا من المنازل! وما نجا من معاطبها إلا من شملته العنايةُ الربانيَّةُ، ونفذ ببصره من هذه الحقيقة إلى الحقيقة الإيمانية النبوية: حقيقةِ رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

[١٠٤/ب] **والحقيقة الثالثة: حقيقة اتحادية، بل وَحْدية**[2]. لا يفرِّق فيها بين الربّ والعبد، ولا بين القديم والمحدَث، ولا بين صانع ومصنوع، بل الأمر كلّه واحد، والأمر المخلوق هو عين الأمر الخالق. وهذه الحقيقة التي يشير إلى عينها طائفةُ الاتحادية، ويعدّون من لم يكن من أهلها محجوبًا! وهذه حقيقة كفرية إلحادية[3]، وهي مع ذلك خيال فاسد، وعقل منكوس، وذوق من عين منتنة. وكفرُ أهلها أعظمُ من كفر كلّ أمة، فإنّهم جحدوا الصانعَ حقًّا، وإن أثبتوه جعلوا وجودَه وجودَ كل موجود، والذين أثبتوا الصانع سبحانه، وعدلوا به غيرَه، وسوّوا بينه وبين غيره في العبادة = مقالتُهم خيرٌ من مقالة هؤلاء الذين جعلوه وجودَ كلِّ موجود. وعين كل شيء[4]. تعالى الله عمّا يقول الكاذبون المفترون علوًّا كبيرًا.

---

(١) «ب،ك،ط»: «عطل لأجلها»، وقد انتشر الحبر في الأصل على الكلمتين وما بعدهما، فلا يدرى أكلمة «لأجلها» مضروب عليها أم لا. وقد اعتمدنا على «ف».

(٢) «ط»: «واحدية»، تحريف.

(٣) «ب،ك،ط»: «اتحادية». رسمها في الأصل يحتمل هذه القراءة، ولكن الصواب ما أثبتنا من «ف».

(٤) «ف»: «كل موجود»، خلاف الأصل.

فعليك بالفرق بين السائرين إلى عين[1] هذه الحقيقة، والسائرين إلى عين الحقيقة الكونية الحكمية، والسائرين إلى عين الحقيقة المحمَّدية الإبراهيمية الحنيفيّة التي هي حقيقة جميع الأنبياء والمرسلين. وفيها تفاوتت مراتب السالكين ومنازلهم من القرب من ربّ العالمين. قال شيخ هذه الحقيقة[2] لما تحقَّق فناءَ تلك[3] الرسوم وأُفولَها[4] ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام/ ٧٩]. وهذا التوجّه يتضمَّن محبته دون غيره، وعبادته وطاعته دون غيره. فهذه هي الحقيقة حقًّا، وما سواها باطل حقيقةً.

وقال[5] تعالى لأكرم خلقه عليه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[النحل/ ١٢٣] فأمره تعالى أن يقتدي بأبيه إبراهيم في هذه الحقيقة. وكان ﷺ يعلِّم أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيّنا محمد، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»[6].

---

(١) «عين» ساقط من «ك، ط».

(٢) في حاشية «ك»: «هو إبراهيم عليه السلام». وأدخلت هذه الحاشية في «ط» بعد حذف «هو».

(٣) ف: «هذه»، قراءة محتملة.

(٤) «ب»: «أقرلها»، تحريف.

(٥) «ك، ط»: «قال» دون واو العطف.

(٦) أخرجه أحمد (١٥٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣١، ١٠١٧٧) من حديث عبدالرحمن بن أبزى، وهو حديث ثابت إلاّ لفظة: «وإذا أمسوا»، تفرّد بها وكيع عن الثوري، ولم يروها أحد من أصحاب الثوري، ورواه شعبة فلم يذكرها. (ز).

فنسأل الله العظيم أن يهبَ لنا هذه الحقيقة، ويثبِّتنا عليها، ويُعيذَنا ممَّا سواها، إنَّه قريب مجيب[1].

(١) زاد في «ك، ط»: «بمنه وكرمه. والله أعلم».